بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 25 يونيو 2019

رحلة المصطلح العسكريّ في الثقافة العربية الإسلامية

عبد الكريم بنحميدة

باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019

الملخّص:

يلفت الانتباه عند دراسة المصطلح العسكريّ في اللغة العربيّة تواتر ألفاظ كثيرة تعود إلى أصول غير عربيّة؛ إلاّ أنّ شيوعها منذ فترة طويلة حجب السؤال عن جذورها إلى حدّ جعل الكثيرين يخلطون بين الأصيل والدخيل في مجال الاصطلاح العسكريّ. ومع أنّ مسألة الاستعارة اللغويّة ليست حدثا طارئا في تاريخ اللغة، فإنّ حدوث هذا التواصل الاصطلاحيّ، ولا سيّما في الحقل الحربّي، يُعَدّ أمرا ذا خصوصية لأنّه ينشأ من رحم الصدام المسلّح، حيث تتعطّل كل آليّات التحاور والتواصل بين الشعوب والثقافات.

لقد شهدت الثقافة العربيّة الإسلاميّة انفتاحا واسعا على الثقافات المجاورة والنائية، وهو انفتاح ارتسم في أشكال متنوّعة كالتعامل التجاريّ وتبادل المنافع في شتّى مجالات الحياة، غير أنّ أداته الأولى كانت هي اللغة التي تحمّلت عبء نقل مفردات الحضارة، مثلما اضطلعت بمسؤوليّة نقل مفردات الصراع.

إنّ المصطلح العسكريّ الساعي إلى التأصّل في بيئة جديدة - شأنه شأن المصطلح النباتيّ أو الكيميائيّ أو الطبّيّ أو غيره - ظلّ دائما في حاجة إلى قدر كبير من المرونة تسمح له بالتسلّل إلى ثنايا لغة جديدة والاستقرار فيها، والتحوّل بعد زمن إلى جزء من رصيدها المعجميّ؛ ذلك أنّ اللغة -أيّة لغة- تجنح إلى استجماع عناصر قوّتها كلّما جنحت اللغة المانحة إلى الاحتواء أو الهيمنة، وهو ما يؤدي إلى نشوء صراع خفيّ بين مصطلحات تنشد «الحلول» في أرض جديدة، ولغة تمانع أو تتمنّع حتّى يستجيب الوافد لشروطها الداخليّة.

ولقد كشف اهتمام اللغويّين العرب بقضايا المعرّب والدخيل والمولّد حرصهم على إبقاء الحدود قائمة بين ما هو سليل العربية، وما طرأ على معجمها؛ غير أنّ حرص اللغويّ على تنقية اللغة قابله حرص العالم على ترقية العلم، لأنّ هذا الأخير ينظر إلى اللغة، باعتبار أنّها وسيلة موظّفة لتدقيق المعرفة وضبط حدودها والجنوح بها في اتجاه يُسْر الاستخدام ومنع الالتباس. ومن هذه الزاوية، نشأت علاقة موضوعيّة بين العالم واللغة تنأى بالمصطلحات عن كلّ توظيف دينيّ أو إيديولوجيّ.

إنّ المصطلح العسكريّ الذي نتناوله في هذا العمل هو كلّ ما تعلّق مدلوله بمجال الحرب إعدادا وتخطيطا وتنظيما وتنفيذا، بقطع النظر عما طرأ على المصطلح الوافد إلى اللغة العربيّة من تحوّلات دلالية. ويبدو أنّ ما استعارته اللغة العربيّة من اللغات الأخرى كالفارسيّة والتركيّة واليونانيّة وغيرها يعود إلى ثلاثة عوامل: الأوّل هو وقوف العرب المسلمين على أدوات (منتجات/ آلات) حربيّة لم يكن لهم بها سابق عهد، والثاني هو منع الالتباس الذي قد يحصل بسبب تشابه آلتين/ أداتين (واحدة عربيّة وأخرى غير

عربيّة)، والثالث هو استملاح العربيّ لألفاظ جديدة، رغم وجود مرادف عربيّ لها؛ إلا أنّ مجال استخدام المصطلحات المستعارة قد يضيق، وقد يتّسع وفق الحاجة إليها، وهو ما يدفع أحيانا إلى سكون مصطلحات وتحوّل دلالاتِ أخرى.

ولعل ما يلفت انتباه الدارس في علاقة اللغة العربيّة بالمصطلح الحربيّ ليس اتّساع دائرة ما استعارته العربية فقط، وإنّما ضيق مجال ما أقرضته العربيّة للّغات الأخرى قياسا إلى الرصيد المعجميّ الهائل الذي استفادت به هذه اللغات من العربيّة، وهو ما يقف شاهدا على أنّ الثقافة العربيّة بعيدة عمّا تُرمى به من نزوع إلى العنف والمواجهة والإلغاء.

مقدّمة

أصبح من المسلّمات اليوم، القول إنّ المصطلحات بمعناها العامّ الذي يشمل الألفاظ التقنيّة والعلميّة غدت أساس كل تكوين، إذ لا تخصّص في العلوم أو التقنيات دون مصطلحات مضبوطة ثابتة. ولماّ كان المصطلح هو الأداة الضروريّة والوحيدة لنقل المعرفة، فقد صار لزاما على هذه الأداة أن تجنح بأقصى قدر ممكن إلى الدقّة والتحديد والسلاسة، حتى تعصم المدلولات والمفاهيم من مزالق الوقوع في الالتباس أو الغموض أو الحيرة.

ومن هذه الزاوية، كان حرص اللغويّين العرب وعنايتهم بالمصطلح حرصا على العلم في ذاته ونهوضا بالمعرفة في مختلف التخصّصات، ولاسيما بعد ذلك الانفتاح الذي شهدته الثقافة العربيّة الإسلاميّة على الثقافات الأخرى متجاورة ومتباعدة في آن، وهو انفتاح كانت أداته الأولى هي اللغة بمفرداتها ودلالاتها. ومن الطبيعي ألاّ يكون التواصل بين الألسن مرنا وسلسا ومنسابا، إذا كان ينزع إلى الاحتواء، لأن اللسان يجنح إلى استجماع عناصر قوته وصلابته حتى يتصدى لهيمنة اللسان الآخر، فيحدث بين الألسن ما يشبه الصراع الخفيّ، ولكنه صراع طويل ينتهي غالبا بشيوع مصطلحات وسكون أخرى، أو تقلّص دائرة استخدامها.

انطلاقا من هذا الفهم، فإنّنا نسعى بهذا العمل إلى استجلاء مظاهر التواصل بين اللسان العربيّ وغيره من الألسن؛ وذلك استنادا إلى المصطلحات العسكريّة التي استعارتها اللغة العربية، والتي سنركّز عملنا عليها معتبرين أنها تدخل في إطار أوسع هو المصطلح العلميّ/ التقنيّ المتخصّص. وللوهلة الأولى، يبدو الحديث عن التواصل من خلال المصطلح العسكريّ أمرا مثيرا، طالما أنّ الإيحاءات السريعة الأولى للمؤسّسة العسكريّة لا تتجاوز في الظاهر مفاهيم الصدام والسيطرة والنزوع إلى الإقصاء. فهل يجوز الحديث عن تواصل ينشأ من رحم الصراع؟ وما آليات هذا التواصل إن تحقّق فعلا؟ وكيف تتحدّد مفاهيم التجاور والتجاوز/ التناغم والتنافر/ التواصل والتصارع بين اللسان العربيّ والألسن الأخرى؟ تلك المفاهيم التي قضت أسباب تاريخيّة وعوامل دينيّة بنشوئها وتبلورها داخل بيئةٍ كان الحسم فيها يبدو للسيف على حساب القلم واللّسان؟

حتميّة التواصل بين الألسن:

يقتضي الإقرار بضرورة تحديد المصطلحات العلميّة إقرارا آخر بحتمية التبادل اللغويّ في علاقة أخذ وعطاء بين الألسن، وهي مسألة تتحدّد ملامحها وترتسم حدودها وفق قدرة النظام اللغويّ الخاصّ على إنتاج المصطلح الكفيل بمسايرة نسق التطوّر والتعبير عن الحاجات الطارئة. ولكنّ اللسان محكوم -أيّا كانت

مرونة آليّاته واتّساع رقعة استيعابه - بالانفتاح على غيره من الألسن في عمليّة حيويّة تستوجبها كل عملية تبادل حضاريّ[1].

إنّ التبادل بهذا المعنى، ليس وثيق الصلة بالماضي فحسب، بل لكأنّه قدر لا فكاك منه للألسن جميعها. فاللغة الإنجليزيّة اقتبست آلاف المفردات من اللغات الأخرى، كما أوضح ذلك أحد علمائها الكبار، إذ إنهّا اقتبست ما بين 55 و75 في المئة من مجموع مفرداتها من اللغتين اللاتينيّة والفرنسيّة وغيرها من اللغات الرومانيّة، وكذلك اقترضت اللغة الكوريّة ما يقرب من 75 في المئة من مفرداتها من اللغة الصينيّة[2].

وعلى هذا النحو، كان الإقراض والاقتراض أمرا يَسِمُ علاقة اللسان بغيره من الألسن دون أن يرفع الإقراض من شأن اللغة أو أن يتحوّل الاقتراض إلى مبرّر للاستنقاص من خصوبة اللغة وثراء رصيدها الاصطلاحيّ، بل على العكس من ذلك، فإنّ ظاهرة الاقتراض اللغويّ قد تكون في بعض وجوهها ميسم توهّج وتطوّر وعنوان حياة.

كذلك كان شأن اللسان العربيّ يوم اندفع الفاتحون في حركة غزو وتوسّع ضمّت إلى كيان الدولة الإسلاميّة أجناسا وقوميّات وألسنا، وفرضت عليهم التواصل معها. وكان واضحا أنّ هؤلاء الفاتحين لم يروْا غضاضة - يوم دانت لهم الأمم وخضعت لسلطتهم أقاصي البلاد- في تبنّي مشروع التعريب مجسّما في بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة العبّاسيّ المأمون (218هـ/844م). وقبل ذلك شهد العصر الأمويّ حدثين عميقي الدلالة في نموّ اللغة العربيّة وانتشارها: الأوّل هو تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان (86هـ/705م)، والثاني هو أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (101هـ/720م) بتدوين الحديث النبوي[3].

وإذا كان الحدثان الأخيران يَسِمان حقيقة نزوع الدولة نحو استكمال مظاهر سيادتها وتفوّق الدين الرسمي فيها، فإن قرار إنشاء مؤسّسة خاصّة بترجمة الكتب، ولاسيّما اليونانيّة قد أعطى زخما حقيقيّا لحركة الترجمة وخاصة من اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة، تلك الحركة التي بدأت منذ القرن الأوّل الهجريّ وتواصلت في القرن الثاني، ثمّ بلغت أشدّها في القرن الثالث[4]، إذ ترجم العرب في العصر العبّاسي كتاب

1- مناف مهدي محمد الموسوي: مباحث لغوية من حياة اللغة العربية (بين الفصحى واللهجات المعاصرة، المعرّب والدخيل في اللغة العربية، المصطلح العلمي العربي)، بيروت، دار البلاغة، 1992، ص57

2- ستيف أولمان: دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، القاهرة، 1962، ص 143

3- لمزيد التعمق في هذا الموضوع انظر: عبد الحميد العبادي: ثلاث حوادث من التاريخ الإسلامي ساعدت على نمو اللغة وانتشارها، القاهرة، مجلة مجمع اللغة العربية، 9/1957، ص 47

4- إبراهيم بن مراد: التداخل اللغوي والثقافي في كتاب "الاعتماد" لابن الجزّار القيرواني، حوليات الجامعة التونسية، 22/1983، ص56

(إقليدس) في الهندسة، وكتاب (بطليموس) في الفلك، ومؤلّفات (أرخميدس) الرياضيّة والفيزيائيّة، ومؤلّفات (أبقراط) و(جالينوس) الطبّيّة.

ولمّا كانت الترجمة قاصرة وحدها عن النهوض بعبء نقل الحضارة واستيعابها، فقد لجأت العربية كغيرها من اللغات الحيّة إلى الاقتراض اللغويّ من لغات الشعوب التي اتّصلت بها، والتي تبادلت معها البضائع وما تحتاج إليه من منتجات زراعيّة أو صناعيّة كالفرس والروم والأقباط والهنود وغيرهم.[5]

أ- آليّات التواصل

لقد شاع استخدام عدد من المصطلحات التي تبدو للوهلة الأولى دوالّ لمدلولات مختلفة المعنى متباينة المقصد، غير أنّنا نكتشف عند الإيغال في البحث أنّها لا تعني بالضرورة مدلولات مغايرة كل المغايرة. فلو نظرنا مثلا في مفهوم الاستعارة اللغويّة، لتبيّن لنا أنها تعني «ما شُهر بالمعرّب والدخيل، وهو كل ما تستعيره لغة معيّنة من لغة أخرى مجاورة أو مباعدة أو وراثة في مستوى الألفاظ والصرف والنحو والأساليب، سعيا وراء تحقيق توازن نظامها الذي خلا من مقولات لغوية لم توفّرها بوسائلها الذاتيّة، وذلك لأسباب حضاريّة وثقافيّة»[6]. وهذا التعريف يضمّ مفردتي (المعرّب والدخيل)، وكأنّ لهما نفس الدلالة، بل إنّ الأقدمين قد درجوا على تسمية الدخيل بالأعجميّ، وفي عُرفهم أنّ الأعجميّ هو نقيض العربي، وإن كان اللفظ الدخيل هو اللفظ المعرّب والمولّد والمحدث المتفرّع عن أصول أعجميّة أو المتّصل بتركيب أحدثه العرب المولّدون، وهو أيضا جملة الألفاظ العاميّة التي استعملها بعض الكتّاب والشعراء المولّدين[7]. والخليل بن أحمد الفراهيديّ نفسه (174هـ/786م) استعمل أربعة مصطلحات أثناء معالجته للّفظ غير العربيّ، وهذه المفردات هي: المحدث والمبتدع والمولّد والدخيل، غير أنها تبدو مترادفة، باعتبار أنّها تفيد جميعا الدخيل وما يتّصف به من الحداثة، لأنّه ليس من الأصل[8].

وقد سعى اللغويّون العرب في مراحل تاريخيّة متعاقبة إلى رصد العامّيّ والدخيل اللذين غشَيا العربية، فأصبحا يشكّلان جزءا من نسيجها العامّ[9]. ولهذا، تتابع التأليف في موضوع الدخيل والعامّيّ بدءا من كتاب

5- الموسوي: مباحث لغوية، ص58

6- محمد رشاد الحمزاوي: الاستعارة اللغوية قديما وحديثا: منزلتها من التوليد اللغوي وإثراء المعجم العربي الحديث، حوليات الجامعة التونسية، 17/1979، ص5

7- شهاب الدين أحمد الخفاجي المصري: معجم الألفاظ والتراكيب المولدة في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تح: قصي الحسين، لبنان، طرابلس، دار الشمال، ط1، 1987، ص 6 من مقدمة المحقق.

8- الحمزاوي: الاستعارة اللغوية، ص10

9- مما لا شك فيه أنّ النص القرآني كان من أسباب تناول هذه الظاهرة، وذلك لأنة احتوى على عدد من الألفاظ غير العربية على غرار "سجّيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويمّ وطور" وغيرها، وإن كان بعضهم يرى أن ليس في القرآن لسان سوى العربية اعتمادا على الآية الكريمة: (إنا جعلناه قرآنا عربيا). انظر: الخفاجي: معجم الألفاظ والتراكيب المولدة، ص68 وما بعدها.

«ما تلحن فيه العوامّ» لأبي الحسن عليّ بن حمزة الكسائيّ (180هـ/796م) وصولا إلى كتاب «معجم الألفاظ والتراكيب المولّدة في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» لشهاب الدين أحمد الخفاجيّ المصريّ (1069هـ/1659م) الذي يستمدّ أهمّيته خاصّة من محاولته تبيّن الفروق الدقيقة التي تميّز المعرّب عن المولّد، والمولّد عن المحدث، والمحدث عن العامّيّ، والعامّيّ عن العامّيّ المبتذل.[10]

ويبدو أنّ تقسيم الكلام إلى عربيّ وأعجميّ (دخيل) مردّه هذا الحرص على نقاء اللغة وتخليصها، ممّا يتسرّب إليها من ألفاظ دخيلة فيعلق بها ويثوي في ثناياها، حتى لكأنّ اللغة تَقبل هذا الدخيل على مضض، إذ تدفعها الحاجة إلى تبنّيه واستعماله، ويمنعها الحرص على صفائها إلى استبعاده، فتقيم هذه الألفاظ في منزلة وسط.

وفي العصر الحديث، يبدو أنّ المعرّب والدخيل أصبحا يخضعان إلى العامل الزمنيّ لا إلى العامل الصوتيّ أو الصرفيّ، ذلك أن المحدثين يعتبرون أنّ المعرّب هو ما دخل العربيّة قديما في حين أنّ الدخيل هو ما دخلها حديثا[11]، وهذا ما يؤدّي بداهة إلى القول إنّ ما هو دخيل اليوم سيصبح معرّبا بعد فترة قد تطول وقد تقصر. وإذن، فإنّ نظرة اللغويّين إلى المصطلح الوافد ليست جامدة، إنّما تتحرّك في اتّجاه قبوله وجعله ينخرط في إطار المنظومة اللغويّة التي يفِد إليها. وكذا الشأن فيما يخصّ الدخيل الأسلوبيّ، إذ رفض مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة في أوائل القرن العشرين الأساليب الحديثة المعرّبة، واستعاض عنها بالأساليب الفارسيّة واليونانيّة القديمة، ولم يكن يقبل الجديد إلا في حدود ما تفرضه الضرورة القاهرة.[12]

لقد تصدّى مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة (المكوّن سنة 1932) وكذلك المجمع العلميّ العربيّ بدمشق (المكوّن سنة 1919) لتنقية اللغة وتصفيتها من الدخيل الأسلوبيّ بهدف الدفاع عن عبقريّة العربية والمحافظة على سلامتها[13]، إلا أنّ ذلك لا يمكن أن يحجب حقيقة أنّ ظاهرة الاستعارة اللغويّة تُعدّ إحدى «وسائل التنمية اللغويّة لتملأ اللغات فراغها على حدّ تعبير اللغويّين المعاصرين».[14]

10- كتب العرب مؤلفات عديدة في هذا الباب منها: "إصلاح المنطق" لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت (244هـ/858م)، و"لحن العوامّ" لأبي بكر محمّد بن حسن بن مذحج (379هـ/989م)، و"تثقيف اللسان وتلقيح الجنان" لعليّ بن جعفر المعروف بابن مكي الصقلي (515هـ/1121م)، و"درة الغواص في أوهام الخواص" لأبي محمد القاسم بن علي الحريري (516هـ/1122م)، و"المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم" لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (540هـ/1145م)، و"تقويم اللسان" لأبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي (597هـ/1201م)، و"بحر العوام فيما أصاب فيه العوام" لابن الحنبلي الحنفي (971هـ/1563م).

11- الحمزاوي: الاستعارة اللغوية، ص20

12- للتوسّع في هذا الموضوع يمكن العودة إلى مجلّة مجمع اللغة العربيّة، القاهرة، 1934، 1/14 وما بعدها.

13- الحمزاوي: الاستعارة اللغوية، ص22

14- محمد رشاد الحمزاوي: التداخل الأسلوبي في الفرنسية والعربية، حوليّات الجامعة التونسيّة، 11/1974، ص38

ب- المصطلح بين نقاء اللغة وترقية العلم:

إذا كان اللغويّ أحرص على نقاء اللغة وأكثر حذرا في التعامل مع المصطلح الوافد، فإنّ العالِم ينظر إلى اللغة، باعتبارها وسيلة موظّفة لترقية العلم الذي اختصّ فيه؛ فأبو جعفر أحمد بن الجزّار القيروانيّ (369هـ/980م) ضمّن كتابه «الاعتماد في الأدوية المفردة» 176 مصطلحا أعجميّا من جملة 278 دواء مفردا أي ما نسبته 63.31 في المئة[15]. وفي هذا المقام، لم يكن العالم منشغلا بأصالة المصطلح ولا بإخضاعه لقوانين اللغة التي يُنقل إليها، فلقد كان الوعي بالتداخل بين الألسن والحضارات هو العامل المحدِّد في التعامل مع اللغة، الأمر الذي يقود بالضرورة إلى تناول المصطلحات تناولا علميّا ينأى بها عن مساعي التوظيف الإيديولوجيّ، وهو ما جعل العلماء الأقدمين الأفذاذ[16] يبذلون قصارى جهدهم لنقل المفاهيم العلميّة عن طريق المصطلح، فحاولوا أوّلا العثور على المرادف العربيّ، ولما أعيتهم الحيلة ترجموا، وعندما تعذّرت الترجمة عرّبوا دون أن يجدوا حرجا في ذلك.[17]

وإذن، فإنّ الدفاع عن سلامة اللغة العربيّة وعبقريّتها ضدّ التحدّيات الثقافيّة واللغويّة مسألة لم تكن حاضرة في ذهن العالِم، وهو يبحث ويجرّب ويستنتج ويؤلّف، إذ كان ابن الجزّار «يقف من العربيّة موقفا «علميّا» محضا لا تأثير لـ «جماليّة» اللغة العربيّة فيه، ولا علاقة بينه وبين المواقف المذهبيّة الإيديولوجيّة... وخاصّة من الفقهاء الذين كانوا يدافعون عن «بيان» القرآن»[18].

وبناء على هذا الفهم، فإنّ لغات الاختصاص تُعتبر أدوات لا غنى عنها للتواصل بين المتخصّصين، كما أنّ المصطلحات تعكس النظام المفهوميّ لتخصّصٍ ما؛ أي أنّها تمثّل أساس التواصل المتخصّص[19]. وطالما كان الأمر متعلّقا بالتخصّص العلميّ، فإنّ العالِم الموضوعيّ المتجرّد يجنح عادة إلى استخدام أيسر المصطلحات وأدقّها وأبعدها عن اللبس وأكثرها شيوعا بغضّ النظر عن «درجة أصالتها»، ولعلّ الطبيب ابن الجزّار استماله المصطلح الأعجميّ ليُسره ودقّته ووضوحه ففضّله على المصطلح العربيّ في مستوى

15- إبراهيم بن مراد: التداخل اللغوي والثقافي في كتاب "الاعتماد" لأحمد بن الجزار القيرواني، حوليات الجامعة التونسية، 22/1983، ص64.

16- من بين هؤلاء العلماء نذكر: حنين بن إسحاق (260هـ/873م)، وأبا بكر الرازي (320هـ/943م)، وابن النديم (385هـ/996م)، والخوارزمي (387هـ/998م)، وابن سينا (428هـ/1036م).

17- محمد الديداوي: الترجمة والتواصل، دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000، ص74

18- بن مراد: التداخل اللغوي والثقافي، ص64

19- Maria Teresa Cabré: la terminologie: théorie, méthode et applications, Traduit par: Monique C. Cormier et John Humbley, Canada, les presses de l'université d'Ottawa/Paris, Armand Colin, 1998, p90

الاستعمال والتطبيق[20]، وهو اختيار واعٍ يبيّن - بصورة لا تُنقص من قدر اللغة العربيّة- إلى أيّ مدى كانت هذه اللغة في حاجة إلى الأخذ عن غيرها من اللغات، ولا سيّما في ميداني الطبّ والصيدلة.[21]

ولقد استمرّ التواصل بين العربيّة وغيرها من اللغات، حتّى فترة متأخّرة، إذ ظلّ العلماء العرب متفتّحين على اللغات الأخرى، وخاصّة اليونانيّة والبربريّة واللاتينيّة والفارسيّة شأن العالم ابن البيطار (646هـ/1248م) الذي كان حريصا -إلى جانب ذلك- على الاطّلاع على مختلف اللهجات المحليّة في البلاد العربيّة الإسلاميّة، حتّى يكون مُلمّا بمختلف التسميات النباتيّة والحيوانيّة والمعدنيّة للأدوية والمستحضرات الصيدليّة التي ضمّنها موسوعته الكبيرة في الصيدلة وعلم النبات (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية).

إنّ إرضاء الحاجة العلميّة عبر الاقتراض من اللغات الأعجميّة مسألة في غاية الأهميّة؛ لأنّها تؤكّد قدرة المصطلح على اختراق الحصون الدينيّة والإيديولوجيّة في اتّجاه معرفة كونيّة لا تُقيم وزنا للفوارق بين الشعوب والثقافات بقدر ما تتوسّل بأيسر السبل وأقوم المسالك على درب الترقّي العلميّ.

غير أنّ ما يدعو إلى التأمّل ليس الاستعارة من الألسن الأخرى عند تعطّل السبل داخل اللغة المنقول إليها، وإنّما ما نلاحظه من شيوع استعمال ألفاظ أعجميّة، رغم وجود مرادفات عربيّة لها شأن الإبريق (بالعربية: التَّأمُورَة) والنرجس (بالعربية: العَبْهَر)[22]. ونحن نذهب في تفسير ذلك إلى أنّ بعض الألفاظ قد وجدت هوى في نفس العربيّ فاستملحها لخفّتها أو سهولة نطقها مقارنة بالمصطلح العربيّ، ذلك أنّ الاستعارة اللغويّة ليس مردّها دائما وجود فراغ في اللغة المستعيرة، وإنمّا قد يستطيب الناس ألفاظا مستعارة، فيستعيضون بها عمّا هو كائن في لغتهم من مرادفات دون أن يكون ثمّة سبب آخر يُلجئهم إلى الاقتراض. يقول الجاحظ (255هـ/869م): «أهل المدينة لمّا نزل فيهم ناس من الفُرْس في قديم الدهر علِقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمّون البطّيخ: الخِرْبِز، والسميط: الرَّذدَق[23]، ويسمّون المَصُوص[24]: المَزُور.. وكذلك أهل الكوفة فإنهّم يسمّون المسحاة: بَالْ، وبَالْ بالفارسيّة.. والحوْك: البَاذَرُوج، والباذروج بالفارسيّة، والحوك كلمة عربيّة.. ويسمّون السُّوق والسّوَيْقَة: وازار، والوازار بالفارسيّة. ويسمّون القِثّاء: خيارا، والخيار بالفارسيّة. ويسمّون المجذوم: وِيذي بالفارسيّة»[25]. وبعد أن يرصد الجاحظ الظاهرة يقول: «لو علق ذلك لغة أهل

20- بن مراد: التداخل اللغوي والثقافي، ص63

21- لمزيد التعمق في علاقة اللغة العربية بالمصطلحات الطبية والصيدلية والنباتية يمكن العودة إلى مقال إبراهيم بن مراد: منهج ابن البيطار في معالجة المصطلح النباتي والصيدلي، حوليات الجامعة التونسية، 17/1979

22- الموسوي: مباحث لغوية، ص63

23- السميط: الآجر القائم بعضه فوق بعض. والرذدق أصله بالفارسية (رَسْتَه) ومعناه السطر والصف من النخل وغيره.

24- المصوص: لحم يُنقع في الخلّ ويُطبخ.

25- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، د.ت، 20-1/19

البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه، إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النّبَط وأقصى بلاد العرب»[26]. وهذه الملاحظة مهمّة لكونها تُولي الجوار الجغرافي مكانة خاصّة في الاستعارة اللغويّة، إلا أنها في الوقت ذاته تؤكّد أنّ مسألة الاقتراض اللغويّ مسألة طبيعيّة لا تشترط قربا جغرافيّا ولا تحتاج إلى مسبّبات لغويّة أو حضاريّة.

ولمّا كان موضوع الاستعارة اللغويّة أمرا محسوما، فإنّ دأب اللغة لم يعد رفض المصطلح الوافد، بل مواءمته مع أبنيتها الصوتيّة والصرفيّة والتركيبيّة. فالعرب «كثيرا ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجميّة إذا استعملوها، فيُبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجا، وربمّا أبدلوا ما بعُد مخرجه أيضا. والإبدال لازم لئلاّ يُدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم، وربمّا غيّروا البناء من الكلام الفارسيّ إلى أبنية العرب»[27]، ومن الأمثلة على ذلك الإبدال أنّهم قالوا للصحراء (دسْت) وهي بالفارسيّة «دشْت»، وقالوا (سراويل) و(إسماعيل) وأصلهما «شروال» و«إشماويل» وذلك لقرب السين من الشين في الهمس.[28]

إنّ مجمل الشواهد التي قدّمناها تؤكّد حقيقة لا لبس فيها، وهي أنّ مسألة التواصل بين الألسن واللغات هي بمثابة الحتميّة التي تقبلها اللغة طوعا أو تخضع لها كرها. وإذا كان علم المصطلح هو قاعدة التواصل بين المختصّين؛ فمعنى هذا أنّه لا غنى لهؤلاء المختصّين، ولا سيّما في ميدان العلوم والتقنيات عن التزام التجرّد والقبول بمبدأ أن المصطلح خادم للعلم طالما أنّه السبيل الوحيد الذي يمكّن المختصّين -إضافة إلى صياغة أفكارهم - من تبادل معارف حول موضوع ما في لغة أو لغات مختلفة وتنظيم معلوماتهم بشأن ذلك الموضوع، إذ إنّ تبادل المعلومات يمثّل البعد التواصليّ للمصطلح[29]، بل من العسير تصوّر حدوث تبادل دقيق وسلس وسريع للمعلومات دون مصطلحات موحّدة ومتفَق عليها.

وأيّا كان تقدير الباحثين لعدد الألفاظ التي اقتبستها اللغة العربيّة من مختلف اللغات قياسا إلى ما دخل تلك اللغات من العربية[30]، فإنّ تنبّه القدماء إلى ضرورة التدوين قد أدّى بهم إلى اعتبار المصطلح عصب النصّ العلميّ وقوام اللغة العلميّة. وبما أنّ الإشارة اللغويّة داخل نظام اللغة لا تستطيع أن تقوم بمهمة التواصل، إلاّ إذا وُجدت في إطار مجموعة من الإشارات تحدّد العلاقات التي تقوم بينها جميعا الوظيفة

26- المصدر نفسه، ص19

27- أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي: المعرّب من الكلام الأعجمي، تح: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط3، 1995، ص6

28- المصدر نفسه، ص7

29- Cabré: la terminologie,p90

30- يذهب صبحي الصالح إلى أنّ ما اقتبسته اللغة العربية من مختلف اللغات لا يتجاوز ثلاثة آلاف لفظ، في حين منحت إلى اللغات الأخرى ما يعسر عدّه. انظر: صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، بيروت، دار العلم للملايين، ط6، 1976، ص348.

التواصليّة للإشارة[31]، فإنّ الثابت أنّ قيام التواصل يقتضي تسنين (codage) الأفكار أي تحويل الرسالة المدرَكة والمحسوسة إلى نظام من العلامات أو إلى سَنن من خصائصه الجوهريّة كونه متّفَقا عليه من الناحية التنظيميّة والتصنيفيّة[32]؛ ذلك أنّ غياب هذا الاتّفاق يؤدّي بداهة إلى انزواء كلّ لغة داخل حدودها مع ما يعنيه ذلك من انتفاء كلّ إمكانيّة لاستفادة الثقافات بعضها من بعض وسقوط مفهوم التراكم المعرفيّ الذي هو شرط أساسيّ من شروط الترقّي العلميّ في الزمان وفي المكان.

المصطلح العسكريّ الوافد إلى العربيّة:

لقد أخذت مسألة التواصل أبعادا معرفيّة جديدة، ولا سيّما مع انطلاق الدراسات والبحوث المتخصّصة في نظرية التواصل في الولايات المتّحدة الأمريكيّة في الأربعينيات من القرن العشرين، إذ ساهمت أبحاث متنوّعة في اختصاصات محدّدة (خاصّة الفيزياء والرياضيّات) في بلورة نظريّة حول الأنظمة التواصليّة. وقد شكّل التواصل اللسانيّ فرعا من الفروع المدروسة في نظريّة التواصل، وتمّ تحديد موضوع نظريّة التواصل، باعتبارها بحثا تأمّليّا في المميّزات الخاصّة في كلّ نظام من العلامات مستعمل بين كائنين يهدف إلى غايات تواصليّة[33]. ومن الطبيعيّ أن يكون المصطلح قاعدة التواصل اللسانيّ، خصوصا عندما يتعلّق الأمر بالمصطلح العلميّ الذي عرّفه أحد الباحثين بقوله: «هو كلمة واحدة أو كلمات قليلة توضَع تسمية لشيء قد يكون ملموسا، إمّا لتميّزه عن سواه وقد خلطت اللغة بينهما، وإمّا لحداثة اكتشافه ورؤيته أو تقديره، وإمّا لوصف بعض مراحله على مرّ الزمن، وإمّا لوجود فوارق دقيقة لم تكن مرئيّة في السابق، فاستُعملت المرادفات اللغوية لا بمعنى الترادف بل لتثبيت هذه الفوارق، وقد يكون غير ملموس ممّا يستجدّ في الفرضيّات العلميّة»[34]. وعليه، فإنّ المفاهيم العلميّة والمنجزات التقنيّة لا يمكن نقلها دون إطار مصطلحيّ يساعد على تثبيتها وإشاعتها وتخزينها علاوة على تنظيمها وتصنيفها ضمن فروع معرفيّة دقيقة ومتمايزة.

إنّ هذه القوالب اللفظيّة التي ندعوها مصطلحات لا تعني مستخدم اللغة من حيث تاريخها وأصلها والتحوّلات الدلاليّة الطارئة عليها؛ لأنّها قضايا علميّة يهتمّ بها الباحثون. أمّا مستخدم اللغة، فإنّه نفعيّ بالضرورة إذ يريد منها أن تساعده بمختلف أبنيتها على تحقيق مبدإ التواصل مع الذين يشتركون معه في التحدث باللسان نفسه أوّلا، وفي مرحلة ثانية يبحث عن قواسم لسانيّة مشتركة بينه وبين أصحاب الألسن

31- جان جاك لوسركل: عنف اللغة، تر: محمد بدوي، بيروت، الدار العربية للعلوم، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص9 من مقدمة المترجم.

32- عبد القادر الغزالي: اللسانيات ونظرية التواصل، رومان ياكبسون نموذجا، سوريا، دار الحوار، ط1، 2003، ص25

33- المرجع نفسه، صص24-23

34- سعيد طه ياسين: المصطلح: ما هو وكيف نضعه؟، بحث ضمن مؤتمر التعريب، ص635، (نقلا عن: الموسوي: مباحث لغوية، ص 110.)

الأخرى، ولعلّه لا يجد هذه القواسم في غير المصطلح، حتّى وإن انبنت العلاقة بينه وبين هؤلاء على خلاف سياسيّ أو صدام عسكريّ مسلّح.

من هذه الزاوية، يجوز النظر في المصطلح العسكريّ باعتباره ناقلا لمعرفة حربيّة قوامها الصانع والمهندس والآلة والحيوان المسخَّر للمعركة، إذ إنّ اللغات تتبادل المصطلحات العسكريّة التي لها علاقة من قريب أو بعيد بالشأن العسكريّ بالقدر ذاته الذي تتبادل فيه الشعوب الخبرات الحربيّة والخطط العسكريّة والتنظيم القتاليّ.

وإنّنا نجد الحاجة أكيدة إلى توضيح المقصود بالمصطلح العسكريّ جنوحا إلى الدقّة والضبط ودرءا للتعميم والالتباس. إنّ المصطلح العسكريّ وفق الرؤية التي اخترناها هو كلّ لفظ تعلّق مدلوله بمجال الحرب إعدادا وتخطيطا وتنظيما وتنفيذا بقطع النظر عمّا طرأ عليه (أي على اللفظ) من مدلولات حوّلته إلى مجال آخر. وتدخل ضمن هذا التعريف الآلات الحربيّة والرتب والوظائف العسكريّة ووسائل النقل العسكريّة والحيوانات المعَدّة لمهامّ ما، لخدمة المعركة إلى غير ذلك ممّا يكون له أثر حاسم أو بسيط في نتائج الحرب.

ونحن نعتقد أنّ طرافة البحث تتلخّص في وجود ضرب من المفارقة بين صدام مسلّح تخوضه الشعوب وتواصل خفيّ ينشأ بين الألسن من رحم هذا الصراع أو على هامشه. وليس خافيا أنّ الإسلام الذي انطلق من شبه الجزيرة العربيّة قد حمل لواءه أوّلا مقاتلون عرب، ثم سرعان ما مدّ أجنحته شرقا وغربا وتمكّن في زمن وجيز من بسط سيطرته على أجزاء واسعة من العالم القديم تشكّلت بموجبها امبراطوريّة مترامية الأرجاء مختلفة الأجناس متنوّعة الألوان متباينة الألسن. وكان اللسان العربيّ هو أداة هؤلاء المنتصرين عربا وغير عرب لنشر دينهم الجديد. فلم يكن ثمّة بدّ من إقراض المصطلح واقتراضه في علاقة تؤدّي بالضرورة إلى إثراء المعجم وتوليد المصطلح وتجاور الألفاظ ذات الجذور المختلفة.

أـ المصطلح بين تدقيق المعرفة وصراع الهويّة:

إنّ مفردات كثيرة نستعملها حتّى اليوم في لغتنا العربية قد تسلّلت منذ زمن بعيد دون أن ننتبه إلى أنّها من أصل غير عربيّ؛ فالسيف مثلا الذي احتفى به الشعراء العرب وضربت به اللغة العربية الأمثال وتغنّت به وعدّته رمزا للشجاعة، وقدّمته على الكتاب يعود إلى أصل مصريّ قديم «سفيت»، ومن هذا الأصل انتقل

إلى كلّ اللغات ومنها العربيّة[35]، وربّما جاز لنا القول إنّ السيف كان أقرب الأسلحة إلى نفس العربيّ، مثلما كان الحصان أقرب الحيوانات إلى قلبه، وقد أُثر عنهم القول إنّ السيف كانت تتّخذه العرب كالسكّين وتطعن به كالرمح وتضرب به كالعمود، وتجعله سوطا ومقرعة وتتّخذه جمالا في الملأ وسراجا في الظلمة[36]. ولكن هل كان العرب يتحدّثون عن السيف العربيّ دون سواه، أم كانوا فقط يستهدفون التمييز بينه وبين غيره، عندما استعاروا للسيف الفارسيّ مصطلحا فارسيّا هو «قلجورية»؟ وبمعنى آخر هل كان هاجس الأصالة مقيما في الأذهان مانعا من الخلط بين ما هو عربيّ الولادة (وهو ليس كذلك في الحقيقة) وما هو عربيّ المنشأ؟ ثم ألا يكون هذا الدافع نفسه أي رفض التداخل بين الأصيل والدخيل هو ما جرّهم إلى تسمية الرماح الخشبيّة ذات الأصل اليونانيّ «قُنطاريّات» (kontarion)، وتسمية الأعمدة الفارسيّة ذات الرؤوس المستطيلة «لُتوتا» (مفردها لُتّ) درءا لالتباس قد يحصل بينها وبين الأعمدة العربيّة ذات الرؤوس المدوّرة التي يسمّونها «دبابيس» (مفردها دبّوس)؟

إنّنا نستطيع تبرير لجوء اللغة العربيّة إلى اقتراض المصطلح الأعجميّ للدلالة على دوالّ مغايرة لما هو مألوف في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، إذ تؤدّي الاستفادة من المصطلح الوافد إلى تدقيق الفروق الكائنة بين شكلين لسلاح واحد، ومن هنا يضطلع المصطلح بوظيفة تنظيم المعرفة وتدقيق مستوياتها داخل الفرع الواحد.

وضمن هذا الفهم يمكن أن ندرج لجوء اللغة العربيّة إلى اقتراض مصطلح «الخوذة» الفارسيّ الأصل للدلالة على ما كان يضعه المقاتل على رأسه اتّقاء لضربات العدوّ، وقد عرف العرب هذه الخوذة منذ الجاهليّة باسم «البيضة». ففيم استعاروا هذا اللفظ الفارسيّ؟ وأيّة حاجة لغويّة دفعتهم إلى استعارة هذه المفردة؟ إننا نرجّح أنّ الدافع الأساسيّ هنا معرفيّ يتعلّق بمادّة الصنع، إذ الخوذة من جلد والبيضة من حديد[37]، ولهذا وجب التمييز بينهما، رغم اشتراكهما في الشكل والوظيفة.

ب- المصطلح العسكريّ بين السكون والحركة:

لقد عرف العرب أنواعا من الأسلحة منذ الجاهليّة، وإن كان أغلبها عبارة عن أسلحة فرديّة خفيفة تستجيب لأسلوبهم في القتال القائم غالبا على الغارات السريعة الخاطفة، ثم إنّهم أخذوا كثيرا من أنواع السلاح عن الفرس والروم بعد صدامهم المباشر معهم، لكنّ صناعة السلاح سرعان ما عرفت تطوّرا كبيرا، ولا سيّما في عهد الفاطميّين، إذ قام المسلمون بصنعها في مصانع عُرفت بخزائن السلاح، غير أنّ نفس هذه

35- عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1972، صص64-65

36- ماجد: م، ن، ص65

37- أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط1992، 7/124، مادة (بيض).

الخزائن عُرفت بمصطلح غير عربيّ زمن الدولة المملوكية هو لفظ السلاح خاناه[38] أو الزَرَدْخاناه، وتشتمل على السيوف والقسيّ والنشاب والرماح والدروع المتَّخَذة من الزرد الماتع، [39] وكذلك تلك المتّخذة من صفائح الحديد المغشّاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك من الفؤوس وسائر أنواع السلاح[40]، وربما يعود هذا التنوّع في استخدام مصطلحات للدلالة على المفاهيم ذاتها إلى سيطرة غير العرب على دواليب السلطة، ممّا يؤدّي إلى تسلّل بعض الألفاظ إلى داخل اللغة وإقامتها فيها ومجاورتها لمرادفاتها العربيّة دون أن يكون لها في بعض الأحيان نفس الحظّ من الاستعمال، فلفظة «البيكار» مثلا ذات الأصل الفارسيّ تعني الحرب عامة[41]، غير أنّ استخدامها لم يتواتر في كتب التراث؛ ممّا يعني أنّ حدود التعامل بها كانت ضيّقة إلى حدٍّ آلت معه إلى السكون، وهو نفس ما حصل مع مصطلح «الجاليش» ذي الأصل الفارسيّ أيضا، وإن كان هذا اللفظ الأخير قد طرأت عليه تحوّلات دلاليّة نقلته من معناه الأوّل الذي هو الحرب والمعركة إلى معنى العَلَم الكبير الذي توضع في أعلاه خصلة من شعر الخيل، إلى معنى ثالث هو طليعة الجيش[42].

وبهذا المعنى، فإنّ اللغة المستعيرة تقترض ما تراه صالحا لمعجمها دون أن تكون ملزَمة بضرورة استعماله في المجال الذي خُصّص له في لغته الأصليّة، وإنّما هي تملك هامشا كبيرا من حرّيّة تحويل الدلالة وفق مقتضيات صوتيّة أو صرفيّة أو سياقات دلاليّة. ولعلّ ذلك هو ما جعل مصطلح «سنجق» التركيّ الأصل الذي يعني الطعن يتحوّل عن دلالته الأصليّة إلى معنى جديد هو الراية، مع ما في المعنيين من تجاور، إذ إنّ الراية سُمّيت بذلك لأنّها تكون في أعلى الرمح، والرمح هو آلة الطعن.[43]

إنّ التحوّل الدلاليّ حقيقة قائمة، ولعلّنا لا نتّفق مع بعض الذين يرمون القدامى بالخطإ في تفسير لفظة ما، في حين يرجّح أنّ المصطلح تحرّك دلاليّا في اتجاه معنى مجاور أو مغاير[44].

إنّ اللغة العربيّة قد أفادت بلا شكّ في مجال الاصطلاح العسكريّ من اللغات الأخرى، ولا سيما الفارسيّة والتركيّة، وذلك لأسباب أهمّها الجوار الجغرافيّ واستمرار المعارك بين مختلف الأطراف بلا

38- ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص64

39- الزرد الماتع: الجيّد البالغ الجودة.

40- أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987، 4/11

41- المصدر نفسه، 6/290

42- ذكر القلقشندي لفظ "جاليش" بشينين (شاليش). وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يوما قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخانه، وهو مكان في القلعة. انظر: صبح الأعشى، 4/7

43- القلقشندي: صبح الأعشى، 2/142

44- مثلما اعتُبر الفيروزابادي مخطئا في شرح كلمة "السَّمَنْد"، وهي لفظة فارسية قال عنها إنها الفَرَس، في حين أنّها دابة موصوفة بلون مخصوص ولذلك يوصَف بها الفرس. انظر: حامد صادق قنيبي: دراسات في تأصيل المعربات والمصطلح من خلال دراسة "تحقيق تعريب الكلمة الأعجمية" لابن كمال باشا، بيروت، دار الجيل، عمّان، دار عمار، ط1، 1991، ص84

انقطاع تقريبا وسيطرة الفرس والأتراك على أجهزة الدولة وقيام إمارات ودول إسلاميّة الديانة أعجميّة اللغة، غير أنّ الصراع الذي كان طابع العصور الوسطى وسِمَتها الأساسيّة لم يصاحبه صراع لغويّ، بل نجد على النقيض من ذلك أحيانا مصطلحات يتجاور فيها لفظان من أصلين مختلفين على غرار مصطلح أمراء الطبلخاناه (أو الطبلخانه) التي تعني دار الطبول، حيث يسير هؤلاء الأمراء وحولهم الطبل يُدقّ. إنّ «الطبل» مفردة عربيّة أُلحقت بها لفظة فارسيّة «خان»، وهي بمعنى (منزل)، وقد عُرفت هذه الكلمة في الألسن العربيّة الدارجة بمعنى (نُزُل) أو(فندق) للمسافرين والبضائع. وقد عرّب العرب في قرون خلتْ هذه الكلمة، فجعلوها «الحان» بالحاء وخصّوها بالخمرة والشاربين، ومثلها «حانة» مؤنّثة فابتعدت عن دلالتها بالفارسيّة.[45]

إنّ ثمة أمرين يلفتان الانتباه: الأوّل هو أنّ هذا المصطلح (طبلخانه) نُحت من لفظتين، وقَبِلته اللغة العربيّة، رغم أنّ النحت ليس من خصائصها ولا من وسائل نموّها، والثاني أنّ هذا اللفظ عرف انتشارا واسعا، ولا سيّما زمن الدولة المملوكيّة، وهؤلاء المماليك ليسوا من الفرس مع ما يعنيه ذلك من أنّ غلبة المصطلح وشيوعه ليسا مرتبطين بالضرورة بالسلطة السياسيّة، إذ لا سلطة للحكّام على اللسان.

إنّ تماسّ الشعوب واحتكاكها وصدامها المسلّح قد أفاد اللغات من حيث إنّه ساعد مختلف الأقوام على الاطّلاع على أنماط حياة جديدة بمفردات جديدة تنتقل في الزمان من لسان إلى آخر، فيموت بعضها ويتعرّض بعضها الآخر إلى التغيير، حتى يتوافق مع الأبنية الصوتيّة والصرفيّة للّغة المستعيرة على غرار ما حدث مع مصطلح «إكديش» مثلا، وهو مصطلح فارسيّ الأصل ويُنطق ويُكتب دون ياء (إكدش) بفتح الهمزة وكسرها، ثم طرأ عليه تغيير عندما دخل اللغة التركيّة إذ أصبح (أيكيدش)، ومعناه الفرس الهجين.[46]

إنّ رحلة المصطلحات عجيبة حقّا، ما في ذلك شكّ، رحلة تطول وتتشعّب محطّاتها أحيانا، حتّى ليعجز الباحث عن معرفة أصلها وكأنّها تتحول إلى ملكيّة جماعيّة بين اللغات.

ألسنا الآن لا نعرف على وجه الدقّة، إن كان مصطلح أسطول[47] مصريّا قديما أو يونانيّا مع أن لا أحد يجهل أنّه مصطلح غير عربيّ؟ ثم ألسنا نحن العرب نرى أن لفظة «جاووش» أو «جاويش» (وهي رتبة عسكريّة) أصلها بربريّ، في حين يرى بعضنا أن اللفظة تركيّة مشتقة من (جاو) الذي يدلّ على معنى الصياح والنداء، في حين أنّ المعاجم التركية تذكر أنّ أصلها فارسيّ؟

45- إبراهيم السامرائي: الدخيل في الفارسية والعربية والتركية: معجم ودراسة، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1997، ص205

46- جاء في صبح الأعشى: الإكديش من أصناف الخيل العجميات وهي البراذين، ويقال لها الهماليج، وتُعرف الآن بالأكاديش وتُجلب من بلاد الترك ومن بلاد الروم، وغالبا ما توجَد مشقوقة المناخر، وتُطلب للصبر على السير وسرعة المشي. 2/17

47- المقصود بالأسطول في اللغة العربية السفن التي يسافر فيها للقتال.

بل إنّنا نجد أحيانا لفظتين من لغتين مختلفتين تأتلفان لتكوّنا مصطلحا جديدا على غرار لفظة «أسفهسلار» المركّبة من لفظين: الأوّل فارسيّ وهو (أسفه) بمعنى المقدَّم، والثاني تركيّ ومعناه العسكر، فيصبح معنى اللفظتين وقد اجتمعتا يدلّ على رتبة عسكرية «مقدَّم العسكر»[48]. وليس ثمّة شكّ الآن في أنّ أكثر المصطلحات ترحل من لغاتها الأصليّة إلى لغات أخرى فتكتسب معاني جديدة لم تكن لها في السابق، بل قد لا تكون ثمّة أيّة صلة بين المعنى الأوّل في اللغة الأصليّة والمعاني الطارئة في اللغات المنقول إليها. إنّ مصطلح «اليَزَك» مثلا يعني في اللغة العربيّة الطليعة؛ أي طليعة الجيش، وفي التركيّة يحمل دلالة المنع[49]، في حين أنّ لفظة اليزك مغولية الأصل وتعني القانون[50].

ج- المصطلح العسكريّ العربي مُعارا:

إنّ اللغة العربية استعارت عشرات أو مئات المصطلحات العسكريّة من اللغات الفارسيّة والتركيّة واليونانيّة[51] والإسبانيّة[52] وغيرها، وفي الوقت ذاته أقرضت اللغاتِ الأخرى بمقدار ما توافر لها وما احتاجت إليه تلك اللغات، وفي مجال الاصطلاح العسكري أصبح معروفا اليوم، أنّ الأوروبيين استعاروا من اللغة العربيّة ألفاظا يتعلّق جلها بالبحريّة، ولا سيّما في العصور الوسطى التي شهدت موجة الحروب الصليبيّة. وقد شاعت هذه المصطلحات وانتشرت في أوروبا وما زالت مستخدَمة حتى اليوم على غرار لفظة «أمير البحر» التي انتقلت إلى الفرنسيّة Amiral وإلى الإنجليزيّة Admiral وإلى البرتغاليّة Almirante[53]، مثلما عرف الأوروبيّون نوعا من المراكب الحربيّة الشديدة البأس باسم Corvette، وهو اسم محرَّف عن الاسم العربيّ «غراب»[54] على غرار انتقال لفظة «الحبال»، باعتبارها من معدّات السفن الحربيّة إلى اللغات الأوروبيّة باسم Cable[55] أو انتقال مصطلح «الصناعة» الذي يعني في الأصل دار (أو مكان) صناعة السفن العسكريّة إلى الغرب باسم Arsenal، وهو الاسم الذي مازال مستخدَما حتى اليوم بالدلالة نفسها.

48- القلقشندي: صبح الأعشى، 3/483

49- أصلها في اللغة التركية (ياساق)، ومنها اليسقي واليسقجي، زهز من يقوم بمهمة حراسة القناصل والسفراء وحمايتهم، أي يمنع عنهم الأذى. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، 10/111

50- المصدر نفسه، 10/111

51- من الكلمات اليونانية التي استعارتها العربية ما يُعرف بالكردوس (khortos)، وهو القتال في أعداد صغيرة بخلاف عادة العرب الذين كانوا يقاتلون بالصف، انظر: ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص71.

52- ممّا اقترضته العربية من اللغة الإسبانية لفظة بُطْسة (أو بطشة) وتعني السفينة الكبيرة. والأصل أن تُستخدَم للحرب، ولكنها أحيانا تستعمل للتجارة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، 3/ 597-596

53- ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص77

54- المرجع نفسه، ص75

55- المرجع نفسه، ص78

إنّ ما أقرضته اللغة العربيّة إلى اللغات الأوروبيّة لا يُعَدّ كبيرا إذا ما قارنّاه بالعلاقة الاصطلاحيّة التي نشأت بين العربيّة والتركيّة مثلا، فلقد بلغ تأثيرها في اللغة التركيّة حدّا جعل هذه الأخيرة تستعير من اللغة العربيّة حروفا على غرار «حتّى» و«واو العطف» وغيرها ممّا لا يمكن أن تخلو منه لغة من اللغات[56]، حتى ليصحّ القول إنّ تأثير العربيّة في غيرها لم يكن مجرّد اختيار لغويّ من اللغة المقترِضة وإنّما كان اضطرارا أملته المنازل الشاغرة داخل اللغات المنقول إليها. وهذا الشاعر الفارسيّ الفردوسيّ ينظم ملحمته «الشاهنامه» لاستعادة أمجاد أمّته، ثم يعود لينظر ما فيها من المصطلح العربيّ الذي اجتهد أن يستبعده ما وسعه ذلك، فكان أن وجد فيما صنع بضع مئات عدّة من الألفاظ العربيّة فسخط وصرخ قائلا: «تف عليك أيها الفلك الدوّار».[57]

إنّ هذا الموقف يحيل على الفكرة القائلة إنّ السياسة اللسانيّة هي الشكل المدنيّ للحرب بين الألسن مثلما أنّ الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى[58]، وهو موقف ينشأ بدافع الاعتزاز باللغة والتعصّب لها إلى الحدّ الذي يقود إلى رفض الألسن الأخرى ورفض مبدأ الاستعارة اللغويّة، وهو اتّجاه قد يتبنّاه بعض دعاة النقاء اللغويّ، ولكنّ من العسير تخليص اللغة ممّا وفَدَ إليها واستقرّ في معجمها وغدا جزءا من ميراثها اللغويّ ورصيدها الاصطلاحيّ. ونحن نجد شاهدا ذا دلالة بالغة على أن انفتاح اللغات وتبادلها للألفاظ أقوى من كل العوامل السياسيّة التاريخيّة وغيرها. فلقد استطاع النورمانديّون والرومان ومن بعدهم فرسان القدّيس يوحنّا أن يُزيلوا كلّ أثر للعرب وللمسلمين في جزيرة مالطة، وها هي اليوم خالية من أيّ مسجد أو معلم دينيّ بل من أيّ أثر معماريّ يدلّ على الوجود التاريخيّ للعرب فيها باستثناء بعض شواهد القبور، إن صحّ اعتبارها آثارا معماريّة، لكنّ كل ذلك لم يؤدّ إلى القضاء على اللغة المالطيّة التي هي اشتقاق مباشر من العربيّة ولهجة من لهجاتها.[59]

إنّ اللغة تمتلك جهاز مناعة لا يُعنى بصدّ كلّ وافد بقدر ما يُعنى بتكييفه وفق حاجاتها وانسجامه مع بناها، ولهذا السبب فنحن نستطيع أن نفهم كيف أنّ اللغة التركيّة لم تجد غضاضة في أن تقترض من اللغة العربيّة ما وسعها الاقتراض إلى الحدّ الذي جعل الجذر اللغويّ العربيّ يتجاوز في اللغة التركيّة أربعة آلاف جذر عدا المشتقّات[60] دون أن يعني ذلك سموّا للغة العربيّة أو حطّا من اللغة المستعيرة.

56- السامرائي: الدخيل، ص213

57- السامرائي: الدخيل، ص213

58- Louis-Jean Calvet: la guerre des langues et les politiques linguistiques, Paris, Hachette littératures, 1999, p283

59- أحمد طلعت سليمان: معجم المفردات العربية في اللغة المالطية، بيروت، مكتبة لبنان، 1992، ص (ح) من المقدمة. ويمكن أن نذكر من بين المصطلحات العسكرية التي انتقلت من العربية إلى المالطية: feda (فِدَى)، fidwa (فدية)، ghadu (عدوّ)، fieres (فارس)... إلخ.

60- داود سلوم، داود العنبكي، إنعام سلوم: معجمات اللغة العربية المستعارة في اللغات الأجنبية: التركية، الفارسية، الكردية الكرمانجية، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2000، 2/19

غير أنّ بحث رحلة المصطلح وتنقّله بين اللغات يقود بلا شك إلى ملاحظة قلّة ما أعارته اللغة العربية إلى مثيلاتها في مستوى الاصطلاح العسكريّ، إذ من العجب أنّ اللغة التركيّة لم تقترض سوى ما يقرب من خمسة وعشرين مصطلحا عسكريّا فقط[61]. وهذه اللغة الفارسيّة أكثر اللغات احتكاكا بالعربيّة لم تأخذ من العربيّة في مجال الاصطلاح العسكريّ أكثر من خمسة عشر مصطلحا لا تقارَن بمئات المصطلحات التي اقترضتها الفارسيّة من العربيّة في شتّى الفنون والمعارف[62]، وهو يكاد يماثل العدد الذي اقترضته اللغة الكرديّة (الكرمانجية) من العربيّة[63]. وكلّما ابتعدتْ ديار الإسلام عن البلاد العربيّة قلّ عدد الألفاظ ذات الدلالة الحربيّة المنقولة من اللغة العربيّة إلى اللغات الأخرى، فاللغة الماليزيّة لم تسْتعِرْ سوى ثلاثة مصطلحات من جملة مئات المفردات التي أفادتها بها العربيّة[64]، وهو عدد يقلّ بمصطلح عمّا اقترضته اللغة الأندونيسيّة من العربيّة[65] رغم أنّ أكثر من ثلث جذور هذه اللغة من أصل عربيّ[66].

أمّا في القارّة الإفريقيّة فلم تستعر لغة الهوسا التي تنتشر خاصّة في القسم الشماليّ من نيجيريا سوى ثلاثة مصطلحات عسكريّة من العربيّة[67] شأنها شأن اللغة السواحليّة[68]، في حين خلتْ لغة اليوربا في البينين وغرب نيجيريا من أيّ مصطلح ذي دلالة حربيّة[69].

إنّ هذه الأرقام تدحض الاتّهام القائل، إنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة كانت حضارة حربيّة بالأساس، وإنّ انتشار الإسلام لم يكن ليتيسّر بهذا الشمول والاتّساع لولا احتكام المسلمين إلى السيف، وتؤكّد في الوقت ذاته أنّ التواصل الذي كان قائما مع الأقوام الأخرى - بقدر ما كان في ظاهره من صدام وصراع- خضع

61- تقع المصطلحات العسكرية الوافدة إلى التركية من العربية بين الصفحتين 21 و159 من الجزء الثاني من المرجع السابق، ومن بين الألفاظ ذات الأصل العربي: bahriye (القوة البحرية)، cihat (جهاد)، fidye (فدية)، futuhat (فتوحات)، kital (القتال)، migfer (المِغفر)، silah (السلاح) وغيرها.

62- من هذه المصطلحات: طَلايَه (أي طلائع الجيش)، عَقِبْدار (مؤخرة الجيش)، قارورة آنْذاز (رامي قناني النفط في الحرب). انظر: المرجع السابق 2/191-265

63- راجع الجزء الثاني من المرجع السابق من ص269 إلى ص329، ومن بين المصطلحات: سِلحْ (سلاح)، عَسْكَر (عسكر)، غارْ (غارة).

64- هذه المصطلحات هي: askar (عسكر)، harab (حرب)، dar-alhar (دار الحرب). راجع: داود سلوم: معجمات اللغة العربية المستعارة في اللغات الأجنبية، اللغة الماليزية، اللغة الأندونيسية، اللغة السواحلية، لغة الهوسا، لغة اليوربا، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2000، ج1، من ص31 إلى ص94

65- المصطلحان هما: laskar (العسكر)، djihad (جهاد)، انظر: المرجع نفسه، ج1، من ص 107 إلى ص145

66- المرجع نفسه، ص97

67- هذه المصطلحات هي: maharbi (محارب)، jihadi (جهاد)، shahada (الشهادة في الحرب)، انظر: المرجع نفسه، ج1، من ص171 إلى ص223

68- يتحدّث بهذه اللغة سكان السواحل في شرق إفريقيا: كينيا والصومال وتنزانيا وموزمبيق وبعض سواحل مدغشقر الغربية. والمصطلحات المقترَضة هي: askari (عسكري)، ghasia (غزو)، mharabu (محارب)، انظر: المرجع نفسه، ج1، من ص237 إلى ص277

69- يمكن مراجعة قائمة المصطلحات التي وفدت من العربية إلى لغة اليوربا في المرجع السابق نفسه، ج1، من ص289 إلى ص293

إلى عوامل أخرى تحتاج إلى آليّات مغايرة في الشرح والتحليل لتكون النتائج أقرب إلى الرجحان واليقين بعيدا عن الظنّ والاتّهام.

الخاتمة

إنّ المصطلح العلميّ التقنيّ المتخصّص، وهو يجنح إلى الدقّة والشمول والبساطة يجد مجالا واسعا للانتشار والإقامة في ثنايا اللغات، سعيا وراء الاستقرار والتحوّل إلى جزء من رصيدها المعجميّ، دون أن تعني رحلة المصطلح استنقاصا من شأن اللغة المستعيرة أو سموّا باللغة المعيرة. وفي تراثنا العلميّ العربيّ على وجه الخصوص، ما يؤكّد أن أغلب العلماء لم يكونوا منشغلين بأصالة المصطلح أو إخضاعه إلى قوانين اللغة العربيّة، لأنّ العامل المحدّد في تعاملهم مع المصطلح كان الوعي بحتميّة الاقتراض اللغويّ والوعي بسيادة العلم وضرورة تلبية مقتضيات المعرفة المتخصّصة، وهو ما نأى بهم عن دواعي التوظيف الدينيّ أو الإيديولوجيّ.

ولقد تبيّن أنّ من المتعذّر نقل المفاهيم العلميّة والمنجزات التقنيّة دون قوالب لفظيّة تتولّى مهمّة ترسيخها وتعميمها تأكيدا لمفهوم التراكم المعرفيّ، باعتباره شرطا أساسيّا من شروط الترقّي العلميّ. وضمن هذا الإطار، انبنت العلاقة بين الثقافة العربيّة الإسلاميّة وغيرها من الثقافات التي تبادلت معها الخبرات والمنافع والصراعات. ولعلّ التواصل في مجال الاصطلاح الحربيّ قد نشأ في رحم الصراع الدامي والحروب الطويلة، فاستعارت اللغة العربيّة عددا كبيرا من المصطلحات العسكريّة، إمّا بدافع الحاجة إليها، أو بدافع التمييز بين الوافد والأصيل، أو تحت إلحاح منهجيّ يدعو إلى تنظيم المعرفة وتدقيق مستوياتها حتى داخل الفرع الواحد.

غير أنّ المصطلحات المستعارة لا تعرف نفس الحظ من الاستخدام، بل قد يؤول الأمر ببعضها إلى السكون فيما يشهد بعضها الآخر تحوّلات دلاليّة تقتضيها سياقات محدّدة دون أن يكون شيوع المصطلح أو موته مرتبطا بسلطة سياسيّة أو عسكريّة، إذ لا سلطان للحكّام على اللسان.

إنّ اللغة تمتلك هامشا واسعا من حرّيّة استعمال المصطلح، أو إماتته أو تحويل دلالته؛ وذلك تبعا لعوامل شتّى. ولهذا يبدو المصطلح في حركة حتّى لكأنّه في رحلة قد تقوده إلى زوايا الإهمال والنسيان، وقد ترفعه إلى مستوى الكونيّة، ولكنّه - أيّا كان اتّجاه حركته- لا يستمدّ حيويّته وعنفوانه إلاّ من انخراطه في دائرة التواصل وقدرته على تبليغ المفاهيم بأقصى قدر من الضبط والسلاسة.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

* الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ج1، د.ت.

* الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد): المعرّب من الكلام الأعجمي، تح: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط3، 1995

* الخفاجي المصري (شهاب الدين أحمد): معجم الألفاظ والتراكيب المولّدة في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تح: قصي الحسين، لبنان، طرابلس، دار الشمال، ط1، 1987

* القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987.

* ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين): لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج7، 1992.

ثانيا: المراجع

أ- العربية

* الديداوي (محمد): الترجمة والتواصل، دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000

* السامرائي (إبراهيم): الدخيل في الفارسية والعربية والتركية، معجم ودراسة، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1997

* سلوم (داود): معجمات اللغة العربية المستعارة في اللغات الأجنبية، اللغة الماليزية، اللغة الأندونيسية، اللغة السواحلية، لغة الهوسا، لغة اليوربا، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2000

* سلوم (داود)، داود العنبكي، إنعام سلوم: معجمات اللغة العربية المستعارة في اللغات الأجنبية: التركية، الفارسية، الكردية الكرمانجية، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2000

* سليمان (أحمد طلعت): معجم المفردات العربية في اللغة المالطية، بيروت، مكتبة لبنان، 1992.

* الصالح (صبحي): دراسات في فقه اللغة، بيروت، دار العلم للملايين، ط6، 1976

* الغزالي (عبد القادر): اللسانيات ونظرية التواصل، رومان ياكبسون نموذجا، سوريا، دار الحوار، ط1، 2003

* قنيبي (حامد صادق): دراسات في تأصيل المعرّبات والمصطلح من خلال دراسة «تحقيق تعريب الكلمة الأعجمية» لابن كمال باشا، بيروت، دار الجيل، عمّان، دار عمار، ط1، 1991

* ماجد (عبد المنعم): تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1972

* الموسوي (مناف مهدي محمد): مباحث لغوية من حياة اللغة العربية (بين الفصحى واللهجات المعاصرة، المعرّب والدخيل في اللغة العربية، المصطلح العلمي العربي)، بيروت، دار البلاغة، 1992

ب- المعرّبة

* أولمان (ستيف): دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، القاهرة، 1962

* لوسركل (جان جاك): عنف اللغة، تر: محمد بدوي، بيروت، الدار العربية للعلوم، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005

ج) الدوريات

* بن مراد (إبراهيم):

- التداخل اللغوي والثقافي في كتاب «الاعتماد» لابن الجزار القيرواني، حوليات الجامعة التونسية، 22/1983

- منهج ابن البيطار في معالجة المصطلح النباتي والصيدلي، حوليات الجامعة التونسية، 17/1979

* الحمزاوي (محمد رشاد): -الاستعارة اللغوية قديما وحديثا: منزلتها من التوليد اللغوي وإثراء المعجم العربي الحديث، حوليات الجامعة التونسية، 17/1979

- التداخل الأسلوبي في الفرنسية والعربية، حوليات الجامعة التونسية، 11/1974

* العبادي (عبد الحميد): ثلاث حوادث من التاريخ الإسلامي ساعدت على نموّ اللغة وانتشارها، القاهرة، مجلة مجمع اللغة العربية، 9/1957

د) غير العربية

* Cabré (Maria Teresa): la terminologie: théorie,méthode et applications, traduit par: C.Cormier et John Humbley, Canada, les presses de l’université d’Ottawa/Paris-Armand Colin,1998.

* Calvet (Louis-Jean): la guerre des langues et les politiques linguistiques, Paris, Hachette littératures, 1999

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019